

الوجه الآخر للفرنكوفونية لم يعد خافيا على أحد

كتاب فرنكوفونيون عادوا مجتمعاتهم لينالوا رضا الغرب



الفرنكوفونية بوجه قاتم أيضا

توحدنا جميعا من الماء إلى الماء، وذلك قيل: اللغة تصنع الشعب، كما يؤكد أونيزيم ريكلو، المدير للفرنكوفونية.

عموما، ضروريا للاطلاع على منجزات الأمم الأخرى والأخذ بأسباب الحداثة، فإن ذلك لا يعني إحلالها محل لغتنا، التي

فهما يعاديان العروبة والإسلام، بدعوى مقاومة الغلامية والفكر الإخواني. لكن كان تعلم الفرنسية، واللغات الأجنبية

للفرنكوفونية لا يحتفظ بغير أصلاء المستعمرات القديمة، إذ إن البلجيكية أميلي نوتومب، والروماني يونسكو، والروسي اداسوف، والأميركي جوليان غرين وسواهم كثير لا يُعدون اليوم من الفرنكوفونيين، لأن الغاية كما أسلفنا هي فرض الهيمنة الاقتصادية عن طريق اللغة على الشعوب المغلوبة بالأساس، وليس أدل على ذلك من أن تدريس اللغة الفرنسية منذ قيام الإمبراطورية الكولونيالية الفرنسية صار إجباريا في كل المستعمرات، وكانت تُدرّس لأطفال النخب وزعماء القبائل المحلية بصفة خاصة، ما أوجد نخبة حافظت بعد الاستقلال على اللغة الكولونيالية كلغة رسمية، لاسيما في البلدان الأفريقية.

اللغة والشعب

لا تزال فرنسا حريصة على الفضاء الفرنكوفوني، لا حبا في نشر الثقافة والحضارة وفكر الأنوار كما يشاع، بل ليظل سوقا لشركاتها ورجال أعمالها، تفرض استثماره كجمال حيوي لاقتصادها ولو بقوة السلاح، كما حصل في عدة بلدان أفريقية، وليس غريبا أن يقترح جاك أتالي في تقرير بعنوان "الفرنكوفونية والفرنكوفيلية محركا لنمو دائم" كان رفعه إلى الرئيس الفرنسي الأسبق فرنسوا هولاند عام 2014، الخ فيه على التمسك بالفضاء الذي "غنمت" شعوبها اللغة الفرنسية كسوق كبرى للشركات الفرنسية، لاسيما أن هذا الفضاء الجيوسياسي مرشح لنمو سكاني مهول في المستقبل القريب، ومن الطبيعي أن تظل الفرنسية، التي تواجه زحف الإنكليزية، هي اللغة المسيطرة. ألم يكن ريكلو يدعو إلى إقامة "أفريقيا فرنسية" بوحدها نشر اللغة القومية؟

وغيث عن القول إننا لا نخون أحدا، ولا نطعن في هوية أحد، ولا نصادر حق أي كان في التعبير عن شواغله باللغة التي يريد، وإنما نذكر بأن من يكتبون بالفرنسية إنما يكتبون، عن وعي أو غير وعي، استراتيجيا وضعت منذ نحو قرن ونصف لخدمة المصالح الاستعمارية. وإن قدموا الأعداء لفصل الأدب عن الانتماء، حين يعتبرون أن "الإبداع لا وطن له" كما قال إدريس الشرايبي، وأن "الكتابة عمل فني وليس فعلا وطنيا" كما صرح مصطفى التليلي، وأن سؤال الكاتب عن هويته هو عمل بوليسي" كما ورد في نص للطاهر بن جلون، وأن "الكاتب الحق هو مواطن من مواطني العالم" كما جاء في حديث لهادي بوراوي، بل إن كتابة مثل ليلى صبار تقول صراحة "إن الآخر بالنسبة إلي هو العربي". أما عن كمال دواد وبوعلام صنصال فحدث ولا حرج،

بين "غنمة الحرب" و"النفث"، تغفل عن الدوافع الأساسية للفرنكوفونية، التي جعلت الفرنسية، منذ نهاية القرن التاسع عشر، المعادل اللساني لسلطة السيف، والجهاز الأيديولوجي للإمبريالية الكولونيالية الفرنسية. وهو ما يحتاج إلى مقارنة أكثر موضوعية.

أبو بكر العيادي

كاتب تونس

ما زال بعض الكتاب الفرنكوفونيين يرون في اللغة الفرنسية "غنمة حرب"، وكانت فعلا كذلك يوم أطلق تلك المقولة كاتب ياسين، وتسلم بها الجزائريون لمقاومة الاحتلال الفرنسي، وفضح سياسته الاستعمارية البشعة وجرائمه الفظيعة. ولكن التعلق بها في بلدان المغرب العربي بعد رحيل المستعمر أثار، ولا يزال يثير، جدلا طويلا حول أسباب تمسك جانب من الكتاب المغاربة بتلك اللغة، وي طرح مسألة الانتماء، لاسيما إذا كانت نصوصهم خاضعة لتصورات الإنثنية المركزية الغربية، لأن النصوص الأدبية ليست مجرد بني نحوية وصرفية ومنظومة لغوية بريئة، بل هي حالة لغسان وقيم، مشحونة بايديولوجيا مضرة أو بادية بين السطور.

الفرنكوفونية الاستعمارية

أغلب الفرنكوفونيين يكتب بالفرنسية لأنه لم يتقن سواها، أو أنه تمرس بها أكثر مما تمرس بلغة بني وطنه لأسباب تاريخية معلومة، أو نتيجة خيارات تربوية مفروضة. منهم من يبحث عن الشهرة فلا يجد غضاة في التركيب لغة مظاهر البؤس والتخلف في مجتمعه لكي يرضى عنه الناشر الأجنبي، فينتج بذلك الصورة التي يحملها الغرب عنا؛ ومنهم من يربأ بقلمه عن أن يكون أداة لتحقير مجتمعه، فتواجه نصوصه حينئذ بالرفض، لأنها لا تتماشى مع الموقف الإنثني المركزي ذاك.

الفرنكوفونية كانت

المعادل اللساني لسلطة السيف، أي أنها جعلت منذ البداية كجهاز أيديولوجي للإمبريالية

ولكن كلا الطرفين يطبق عن وعي أو غير وعي استراتيجية وضعها الفرنسيون منذ أواخر القرن التاسع عشر، لجعل الفرنسية سلاحا يُخضعون به الرقاب. هذه الاستراتيجية صاغها

عندما يكون المرض عاملا مساعدا على الإبداع



هناك أدباء ومفكرون ومثقفون كانت الأمراض سيبلهم لنيل الشهرة والنبوغ والعالمية في كثير من الأحيان

الحسابية هو دانيال تامت الذي كان قادرا على أن يتحدث بإحدى عشرة لغة، ويجري العمليات الحسابية أسرع من الكمبيوتر متجاوزا حالة التوحد التي كان فيها ليكون أحد العباقرة في مجاله الرياضي. ولم يسلم من هذا المرض إمبراطور الكمبيوتر غيتس، ولا الرئيس الأميركي السادس عشر لنكولن أبراهام، وهو أشهر المرضيين في التاريخ الأميركي. ولن يتفوق عليه سوى تشارلز السادس ملك فرنسا المجنون الرسمي الذي نسي حتى اسمه، مثلما كان يرفض الاستحمام لأنه كان يتصور أن جسمه مصنوع من الزجاج؛ في المحصلة ومع أمثلة كثيرة جدا لن يكون المرض عائقا للإبداع والتجلي المرفه لتخليق جماليات أدبية وفنية، وهو ما يؤيد التحليل النفسي الذي درس معظم هذه الحالات وأكد أن المرض الاستثنائي يمكن أن يكون دافعا أساسيا للخروج إلى مساحات أوسع في تجارب الكتابة والرسم والنحت والموسيقى.

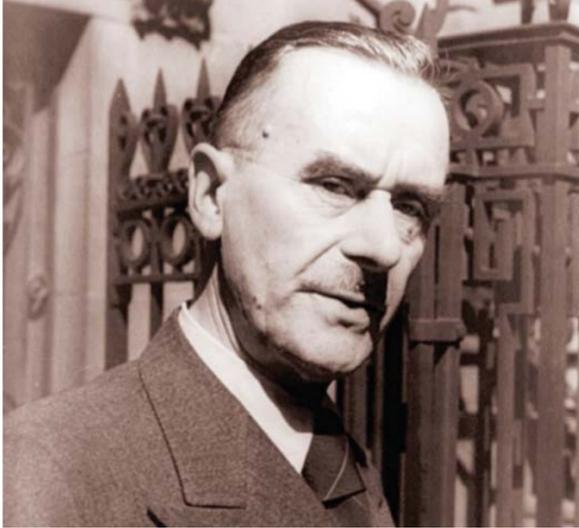
هذا "النقص" إلى تخليق إبداعي كبير بالسفونيات الخالدة المعروفة التي كان يؤلفها ولا يسمعا، فانتصر على هذه العقدة النفسية وتصدر الخلود بطريقة بارعة وعادل ذلك الاضطهاد الأبوي بعبقريته الموسيقية، غير أن أدغار آلن بو صاحب الكتابات الكابوسية كان يعاني من الكابة والجنون وزادت كمية الكابة عنده عندما توفيت حبيبته. فكانت سببا محتملا في ارتفاع نسبة العصبية في داخله، تلك العصبية أنتجت سرديات مهمة في القصة القصيرة على وجه الخصوص.

كافكا وتوماس مان أصيبا بمرض السل الرئوي. وكانا في حالات كثيرة يتجرمان هذه الإصابة بالكتابة وتجلياتها الكثيرة، فكانا علمين لا يستهان بقدريتهما على تحريك الحياة سرديا. ونيته وموباسان كانا يعانين من مرض الزهري لكن المرض حرك فيهما روح الكتابة إلى استثناءات سرديّة فلسفية وروائية في غاية الدقة والاتقان. الوسواس والشروع والتحدث مع آخرين لا وجود لهم في الواقع من صفات مرض التوحد الذي أصاب العالم نيوتن مكتشف قانون الجاذبية، وهذا المرض عانى ويعاني منه الكثير من المبدعين العالميين مثل المخرج والمنتج الأميركي ستيفن آلان سبيلبرغ صاحب فيلم "الفك المفترس" وأينشتاين صاحب النظرية النسبية الذي كانوا يسمونه الأستاذ غائب العقل، على أن المعجزة

جمالي موحد. صاغها الزمن المتعاقب بين الأجيال التي كانوا يمثلونها، وتمثلتها ظروف متعددة أدت إلى أمراض سريرية وأخرى عصبية وغيرها اضطراب التوحد وما على شاكلته من أمراض العصر القديم والجديد. ولو طالعنا إشكالية الموسيقار العالمي بيتهوفن لوجدنا معاناته الأولى تتلخص باضطهاد والده الشرس له حتى فقد سمعه وأصيب بالصمم، لكنه حوّل

حالات الاكتئاب الحادة التي كانت تلازمه، فانتحر برصاصه من بندقيته في لحظة غريبة من حياته الحافلة بالعطافات الروائية، ويلحق به تينيسي ويليامز مدمن المخدرات والكحوليات، لكن هذا انتهى به الأمر إلى الجنون. ولم يختلف عنه جيرار ترفال بالنهاية المؤلمة ذاتها.

مستويات الإبداع عند هؤلاء الأكاير إبداعيا ستبدو كما لو أنها على نسق حالات الاكتئاب الحادة التي كانت تلازمه، فانتحر برصاصه من بندقيته في لحظة غريبة من حياته الحافلة بالعطافات الروائية، ويلحق به تينيسي ويليامز مدمن المخدرات والكحوليات، لكن هذا انتهى به الأمر إلى الجنون. ولم يختلف عنه جيرار ترفال بالنهاية المؤلمة ذاتها. مستويات الإبداع عند هؤلاء الأكاير إبداعيا ستبدو كما لو أنها على نسق حالات الاكتئاب الحادة التي كانت تلازمه، فانتحر برصاصه من بندقيته في لحظة غريبة من حياته الحافلة بالعطافات الروائية، ويلحق به تينيسي ويليامز مدمن المخدرات والكحوليات، لكن هذا انتهى به الأمر إلى الجنون. ولم يختلف عنه جيرار ترفال بالنهاية المؤلمة ذاتها.



كافكا وتوماس مان ممن حفزهم المرض على الإبداع

العتاء والتخليق الفني، كما عند طه حسين وبورخس اللذين أصيبا بالعمى. وهما علمان كبيران في الثقافة الإنسانية العربية والعالمية. لكن يدر شاعر السياب رائد الشعر الحر في مقتبل العمر مصابا بمرض السل وهو في ذروة عطائه التجديدي في القصيدة العربية. أدباء وعلماء وفنانون وسياسيون ورؤساء وعباقرة تاريخيون تقاطعوا مع أمراضهم وتعايشوا معها على أنها تحصيل حاصل، مع اضطراب سلوكياتهم وطرائقهم المختلفة في الحياة وعلاقاتهم مع الآخرين، فهناك أمراض نفسية معقدة وأخرى عضوية فادحة. وفي الحالتين كانت هذه الأمراض سببًا للشهرة والنبوغ العالمية في كثير من الأحيان. فديستوفسكي المصاب بالصرع لكنه انتفض على صرعه وكتب سرديات أوصلته إلى ذروة الإبداع العالمي، وفولبري صاحب الرواية الأشهر مدام بوفاري المصروع في حياته الشخصية والمعقد إلى درجة تثير الحفظ منه. ويتتبع حياة مثل هؤلاء العباقرة الأذفاد مع ملاحظة مستويات الأمراض التي يعانون منها سنجد أن أمراضهم لا تعيق الأداء الإبداعي في الكتابة والموسيقى والرسم والصناعة والاكتشافات والسياسة والسلطة، لكن

هستيريا البعض تؤدي إلى انفصام شخصي مرعب من الصعب فهمه، كما عند أرنست همنغواي المدمن على تعاطي المخدرات والكحوليات بسبب

وارد بدر السالم

كاتب عراقي

قد يكون المرض الاستثنائي أحد أسباب الموت ولكنه ربما ليس هو الموت بعينه. لكنه تجربة مريرة وقاسية على الإنسان تضعه على محك الحياة وفي موضع لا يُحسد عليه. غير أن التجربة في فضاءها الواسع أثبتت أن المرض العضوي أو النفسي أو الولادي - القدري قد يكون أحد الدوافع لتخطي عتبة النكوص والاستسلام، وصولا إلى مديات أرحب نحو جماليات الخلق والإبداع في إشراقات الكتابة وتقنية اللون وحس الموسيقى والابتكارات الفريدة والتصنيع والتنظير العلمي واستشراف الجماليات المتعددة في الحياة.

ولدينا وافر الأمثلة من العباقرة والمبدعين والفنانين ونجوم السينما الذين شل قواهم المرض وأعاقهم من التواصل الطبيعي في الحياة، لكن الكثيرين منهم تناولوا عليه أو تعايشوا معه، وآخرون انبثقت فيهم قوى داخلية وسرية للخلق الجمالي الهائل نحو الإبداع، لهذا فإن أمراضا قاتلة كالسرطان والصل الرئوي والصرع والحالات النفسية المعقدة والإدمان على المخدرات دفعت البعض إلى الخلق والتماهي والنزوع إلى التجديد، تعويضا عن فقدان الجزئي أو الكلي، وأن أقدارا وأدبية أو لاحقة لم تثق مبدعين عن